

وما أظلمها من وقحة ! ولم يضر بها من شدة حماقة وكثافة جهله ، وشدة غباوته ... »

٢ - « يا أهل الذكاء تعجبوا ممن كان عليه مستورا فأنى إلا إشاعته وسيرورته مشهورا ^(١) ، وبين أن ذلك أن قوله « أتوا من بلادهم لأجل التعلم » فيه اعتراف بالجهل بما يطلب تعلمه وما لا يطلب ، وذلك أنه قد تقرر في شريعة المسلمين أن المطلوب تعلمه من أقسام العلم العلوم الشرعية وآلاتها وهي علوم العربية ، وما زاد على ذلك لا يطلب تعلمه ، بل ينهى عنه . ومن المعلوم أن النصراني لا يملكون شيئا من العلوم الشرعية ، ولا من آلياتها بالكلية ، وأن غالب علومهم راجع إلى الحياكة واللقبنة والحجامة وهي من أخس الحرف بين المسلمين . وقد تقرر في شريعتهم أنها نخل بالمدالة . وهل كذب الرب جل جلاله في قوله : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » وسدقت أنت في زعمك يا مفتون ؟ فإقبح حالك ! وما أقطع مقالك »

٣ - « إن قوله : إمتداد القلنسوة يمنع عيونهم من ضرر البرد فيه فضيحة عظيمة ، ومثقة وخيمة ، إذ لم يلتفت لمنع الامتداد المذكور من السجود للملك المعبود ! »

٤ - « وقد بقيت عليك وعليهم ورطة الإقامة في بلاد الكفار بالاختيار حيث لا جمعة ولا جماعة ولا أذان ولا إقامة ولا شمعة من شمائر الإسلام ، ومحل عبادة الأصنام والأوثان والمليان ؛ كيف يرضي بذلك من في قلبه إيمان ؟ لا سيما وهو معرض للموت في كل نفس وأوان ، وقبورهم حفر من النار ، فكيف يختار للؤمن دفنه بها ؟ فاخلعوا قورا زى الكافرين ، وهاجروا لبلاد المسلمين إن كنتم مؤمنين »

٥ - « وقوله لم يرد تحريمها لا في الكتاب ولا في السنة ولا في أقوال الأئمة فيه نداء على نفسه بالجهل والقصور ، إذ قد دل الكتاب على تحريمها بقوله : (واسجدوا) ، وبقوله : (خذوا زينتك عند كل مسجد) وبغير ذلك من الآيات ؛ ومعلوم أنها مأمرة من السجود ، ودلت السنة على ذلك في قوله : « أمرت أن أسجد على سبعة أعضاء . الحديث » وانسقد الإجماع على تحريمها ولا بد من استفادته لكتاب أو سنة ، وهو معصوم عن الخطأ »

(١) كرر الشيخ هذه العبارة « يا أهل الذكاء تعجبوا ... الخ » أربعين وعشرين مرة في رسالته التي هي في إحدى عشرة صفحة خطية من نظم الصغير .

رسالة ..

« للناقد الأزهرى »

في أوائل القرن الهجرى الحاضر كان يقيم في باريس جماعة من التلاميذ المسلمين الذين نزحوا من بلادهم لأجل العلم والتثقف ، وكان يقيم بها أيضا عالم مسلم من أهل الجزائر اسمه « سليمان بن علي » توجه هؤلاء التلاميذ المسلمون إلى هذا العالم الجزائري المسلم يسألونه عن حكم لبس قلنسوة النصراني « البرنيطة » ويذكرون أن أحوال باريس تضطرم إلى لبسها ، لأنهم كلما مروا في شوارع باريس بلباسهم ، توقف للناس عن يمين وشمال ، وصاروا ينظرون إليهم متعجبين ، ولأنهم يريدون أن يغموا عيونهم من ضرر البرد القارس في هذه البلاد ... الخ

درس للشيخ هذا السؤال ، ووضع في الجواب عنه رسالة مفصلة سماها « أجوبة الحيارى » ، عن حكم قلنسوة النصراني « ألباح فيها لبس البرنيطة وأيد رأيه بما زعمه أن يؤديه به على طريقة قديمة سائنة »

أفزع ذلك عالما كبيرا من علماء الأزهر في ذلك الحين هو المرحوم الشيخ محمد عيسى مفتي الحادة المالكية فكتب رسالة في الرد على هذا العالم الجزائري تناوله فيها بألوان من الإقذاع والتسفيه ، ووصمه بالجهل ، والقصور ، والتهمج على الشريعة ، والخروج على أجماع المسلمين ... الخ

وهذه نصوص من الرسالة « المليشية » نضعها أمام القراء ، قال الشيخ بعد الدباجة :

١ - « أقول : يا أهل الذكاء تعجبوا ممن كان عليه مستورا ، ففضح نفسه ، ونادى به عليها بين الناس وصير عيبه مشهورا ، وبين أن ذلك أنه تقرر في شريعة الإسلام أن السفر لأرض العدو للتجارة جرحة في الشهادة ، وغل بالمدالة ، فضلا عن توطئها وطول الإقامة بها ، وهذا الرجل « يقصد الشيخ الجزائري » كان مجهولا مستورا عرف بنفسه بأنه من علماء المسلمين خرج عن حد الشريعة وتهتك ، ولم يبال بالجرحة في شهادته ، ولا باختلال عدالته ، واختار مساكنة الكافرين في ديارهم ، وزهد في مساكنة المسلمين وفتح بلادهم . فيالها من فضيحة ،

المعجزات والكرامات شاك مكذب ، والذي يدعو إلى تهذيب العقائد مما ألم بها من خرافات وأوهام لا يعرفها الإسلام ضال مضل ، والذي ينهى عن الإحداث في الدين والابتداع في العبادات منهجهم على الشريعة ، منكر لما تلقته الأمة بالقبول !

نجد هذا كله إلى الآن ، وتجد العامة في أقاليم مصر وأفطار الشرق يتعاركون فيه ويختصمون عليه ، ثم يتجهون إلى علماء الأزهر بأسئلتهم : ما قولكم دام فضلكم في رجل أنكر كذا أو حكم بكذا ؟ أهو مؤمن أم كافر ، أتطلق عليه إصرأه أم تبقى في عصمته ؟ فإذا جاءهم ما أرادوا من فتوى شهروه في أيديهم سلاحاً ماضياً فتكا في وجوه خصومهم ومجادليهم ، وأناروا به حولهم من أسباب للشغب والفتنة ما الله به عليم

وليس هذا فقط ! بل إن العلماء الكبار ليتجهون أحياناً إلى جماعتهم الموقرة ، فيسألونها في عناية واهتمام : ما قول سادتنا أعلام الأمة جماعة كبار العلماء فيمن قال ... كذا وكذا أو ناصر كتاباً فيه كذا وكذا من الأحاديث الموهمة خلاف ما يرى جمهور المسلمين بأن أشرف على طبعه وقدم له : هل يكفر أو يفسق أو لا ولا ؟

يرد مثل هذا السؤال على « الجماعة » من أحد أعضائها ، فتهتم به ، وتجتمع له ، وتؤلف له اللجان ، وتبحثه المرة بعد المرة ، وتمكف عليه أكثر من عام : كل ذلك من أجل كتاب قديم نشره رجل من العلماء مع اعتراف الجميع بأن ما ورد فيه من الروايات والأحاديث قد ورد في غيره من كتب التفسير والحديث ! فقيم كل هذا ؟ وأي مصلحة للإسلام والمسلمين ترجى من وراءه ؟ ولماذا لم يُحكم فيما مضى ، ولم تحكموا أنتم ، بكفر المؤلف أو فسقه ، حتى تأتوا لليوم فتساءلوا : هل كفر للناس أو فسق ؟ تمقدون لذلك الجلسات ، وترجمون فيه إلى المراجع ، وتؤلفون من أجله اللجان !

الهم إن هذه نزعة لا يسرنا أن تعود الأزهر ، ولا أن تشجعها جماعة كبار علمائه . فإذا كان للتقديم في زمن « عيسى » قد احتمل ذلك أو شرح به صدراً ، فإن الجديد في زمن « المراهي » قد مله واجتواه وضاق به ذرعاً !

(الناقد الأزهرى)

كما هو معلوم ! كيف يجوز أحد من المسلمين لبسها وهو كافر إجماعاً أو على قول ؟ ! »

٦ - وقوله : إن النبي صلى الله عليه وسلم لبس جبة رومية ضيقة الكمين ، فضيحة فاضحة ، لأن الجبة المذكورة لم يختص بها الكفار ولم تصر شعاراً لهم ... وكيف تتجاسر يا أحمق يا مفتون يا غبي على نسبة لبس ملبوس للنصارى الذي صار زياً لهم وعلامة على ذلهم وإهانتهم وكفرهم ، إلى أشرف الخلق ومنبع الدين الحق ، فأى فضيحة أفصح من هذه الفضيحة ، وأى شذوذة أشنع من هذه الشذوذة ، يا أعمى البصيرة ، ويا خبيث السريرة ! شقيت شقاوة لا تعدد بعدها أبداً ، وصار دمك مهدوراً ، والسعى في سفك واجباً مشكوراً !

٧ - وختم الشيخ رده بهذه النتيجة بعد كلام طويل : « لانه تقرر في شريعة المسلمين أن حكم هؤلاء أمرهم بالتوبة والرجوع إلى دينهم ، ولأنهم يزى المسلمين . وإسماهم لذلك ثلاثة أيام ، فإن فعلوا ذلك قبلت توبتهم ، وخلى سبيلهم ؛ وإن تمت الأيام الثلاثة ولم يتوبوا ، قطعت رقابهم بالسيف ، ولا يسلون ، ولا يصلى عليهم لموتهم على الكفر ... والسلام على من اتبع الهدى حامداً لمن نور قلب المؤمنين بالإيمان ... »

هذه هي الرسالة المليشية ، ولكل غاري أن يحكم عليها بما يشاء ، وأن ينقد أسلوبها في البحث ، ولفظها في الحوار ، وأدبها في المناظرة ، على أن يقدر ظروف العصر الذي كتبت فيه ، ونوع الثقافة التي كانت تسيطر على أهل العلم يومئذ ؛ فإن كثيراً من تلك الأحوال ، قد هذب الزمان ، وأصلحته الأيام وأهم ما في الرسالة في نظري مما ينبغي أن تستخلص منه العبرة ، هو محاولة المؤلف في جد واهتمام تكفير بعض المؤمنين أو تسيقهم لأنهم أخذوا برأى لا يوافق رأيه ، ولا يتمشى فيما يحسب مع رأى جمهور المسلمين !

وهذه النزعة إلى التكفير أو التسيق بما لا كفر فيه ولا فسوق ما تزال سائدة في جو الأزهر ، وقد اثبتت عدواها على يديه في كثير من أمحاء مصر والشرق ، فنكر الوسيلة والتوسل كافر عند فلان ، ومنكر سحر النبي صلى الله عليه وسلم كافر عند فلان ، والذي لا يثاق بالقبول كل ما يروون من